يوسف الشايب*

المخرجون الجدد في إسرائيل .. كشف المستور- تجربة المخرجة سيمون بيتون

(الجزء الرابع)

لا زلت أذكر ذلك العرض الذي قدمته المخرجة الفرنسية الإسرائيلية ذات الأصول المغربية سيمون بيتون على أحد مقاطع الجدار في بلدة أبو ديس المحاذية لمدينة القدس، قبل ١٢ عاماً، تنفيذاً لفكرة بادر إليها المخرج الفلسطيني إيليا سليمان، وضمن فعاليات الدورة اليتيمة من مهرجان رام الله الدولي للسينما.

وظهرت في مطلع الفيلم الذي حمل عنوان «الحائط»، رافعة عملاقة تضع كتلاً اسمنتية واحدة تلو الأخرى لتتوارى وراءها في الافق، رويداً رويداً، مئذنة جامع يصدح منها صوت حزين مؤثر .. وفي الخلفية صوت مغنية جاز. وبمحاذاة هذا السور الاسمنتي الذي يتقاطع مع سياج مزود بنظام الكتروني واسلاك شائكة، تجمع سيمون بيتون شكاوى إسرائيليين وفلسطينيين يعبرون عن عجزهم، وعدم فهمهم، ومرارتهم، وألمهم لما يحدث.

بالنسبة لشريف، المزارع الذي يملك ٢٧٠٠ شجرة في الجانب الآخر، «انه انتزاع غير مباشر للملكية».. انها قصة قرية فلسطينية عزلت عن أراضيها وتلف زيتونها الذي يشكل المورد الوحيد لأبنائها.. ناهيك عن عائلات تفرق شملها واقرباء يتكلمون مع بعضهم البعض عبر فرجة صغيرة فيما تقف سيدة مع طفلها في مكان حيث لا يزال الأمر ممكناً. (١)

وقال أحد سكان كيبوتس محاذ، «بالنسبة لأهلي الذين اتوا من شتل لودز فإن هذه البلاد كانت قصة حب مجنون.. لكننا نحب هذه الأرض لدرجة ستنتهي بخنقها». ويحن رجل مسن يهودي عراقي فقد اسنانه إلى العراق، حيث كان فلاحاً، فيقول بحسرة وخيبة «كنا أفضل هناك»، بينما يعتبر

*صحافي وناقد سينمائي فلسطيني.

وعن تحولها نحو التعاطف مع القضية الفلسطينية، تقول بيتون: لم يكن الأمر ممكناً في إسرائيل، بالنسبة لي .. عندما توجهت إلى باريس، وتعرفت إلى فلسطينيين وعرب، بعضهم أصدقائي حتى اليوم، اختلفت الصورة، وشعرت بأن الاحتلال أمر بغيض. وعن رؤيتها المستقبلية للصراع، تقول: أنا متفائلة، ولولا الأمل لتوقفت عن صنع الأفلام، الخاصة بالشرق الأوسط.. أعرف أن مساحة التفاؤل تتضاءل كثيراً في ظل الأحداث السياسية والأمنية

المخرجة سيمون بيتون.

مستوطن «الجدار كناية عن مال مبذر.. يجب التفاوض بشأن حدود حقيقية».

من جهة أخرى، يعرض جنرال جالس وراء مكتبه بين علمين اسرائيليين وجهة نظر الحكومة بتبجّح: «انه واحد من الورشات الكبرى» ويقدر كلفة الكيلومتر الواحد لما يسميه «منطقة الانفصال» او «الجدار الامني» او «حاجز الفصل»، بمليوني دولار.

وفي فيلم سيمون بيتون، التي لم تحصل على تصريح بالذهاب الى غزة عبر الدائرة المغلقة، لقاء مع طبيب نفساني من غزة أكّد على ان ٢٤٪ من الاطفال يطمحون للموت شهداء، وهو رقم تعتبره المخرجة السينمائية دون الحقيقة. وتنهي المخرجة فيلمها بمشهد سيدة تضع يدها على الجدار، فيما يُنشد مزمور يتلوه اليهود عادة عند حائط المبكى «تنساني يميني ان نسيتك يا اورشليم». [٢]

ولدت سيمون بيتون سنة ١٩٥٥ ، وتخرجت من معهد الدراسات السينمائية العليا في باريس، وهي تتنقل بين فرنسا واسرائيل، وتزور المغرب بانتظام.. ومن أشهر الافلام التي قامت بإخراجها «بن بركة، المعادلة المغربية» و«فلسطين، قصة أرض»، و«محمود درويش»، و«راشيل»، و«المواطن بشارة»، وغيرها. [٣]

وفي هذا الجزء الرابع من سلسلة «المخرجون الجدد في إسرائيل .. كشف المستور»، نسلط الضوء على تجربة المخرجة الإسرائيلية الفرنسية ذات الأصول المغربية سيمون بيتون: تجربتها السينمائية، وأفلامها (استعراضاً وقراءات، وأهمية ما قدمته في السينما)، وآراؤها السياسية، وغيرها من الجوانب.

بيتون والسينما

اعترفت بيتون في أحد حواراتها: لم يكن لي اهتمامات في السينما عندما كنت أعيش في إسرائيل .. في الخامسة انتقلنا من المغرب إلى إسرائيل، حيث التحقت بمدرسة فرنسية .. أذكر أن أبي وأمي كانا يتحدثان العربية فيما بينهما، بينما يخاطباننا بالفرنسية .. تعلمت العبرية عندما انتقلنا لنعيش في القدس، العام ١٩٦٦ .. تعلمتها بسرعة، لكني في الوقت نفسه كنت أمارس القراءة بالفرنسية، والغناء بالعربية .. أنا محظوظة لأنني أنتمي إلى ثقافات عدة. [٤]

وتتابع: في العام ١٩٧٣ ، كنت أؤدي الخدمة العسكريّة في الجيش الإسرائيلي .. وقتها شاهدت «الدم»، وتعلمت الكثير .. وحينها قررت

التوجه إلى أوروبا. وتضيف بيتون قائلة: حكايتي مع السينما بدأت في باريس، التي توجهت للعيش فيها، عندما كنت في العشرين من عمري .. هناك بدأت أتردد على دور السينما، وبدأت مع الوقت أكثف زياراتي إلى هذا المكان، الذي كنت أشعر بشيء غريب يجذبني إليه، فدرست السينما، وهكذا بدأت حكايتي مع الكاميرا. [٥]

وعن تحولها نحو التعاطف مع القضية الفلسطينية، تقول: لم يكن الأمر ممكناً في إسرائيل، بالنسبة لي .. عندما توجهت إلى باريس، وتعرفت إلى فلسطينيين وعرب، بعضهم أصدقائي حتى اليوم، اختلفت الصورة، وشعرت بأن الاحتلال أمر بغيض. وعن رؤيتها المستقبلية للصراع، تقول: أنا متفائلة، ولولا الأمل لتوقفت عن صنع الأفلام، الخاصة بالشرق الأوسط.. أعرف أن مساحة التفاؤل تتضاءل كثيراً في ظل الأحداث السياسية والأمنية التي تسيطر على المنطقة، لكني أعرف الكثير من الفلسطينيين والإسرائيليين المتعطشين للسلام .. الأمل عنوان الحياة .. لا حياة دون أمل.[٦]

«الحائط»

وبالعودة إلى فيلمها «الحائط»، يمكن القول بأن جدلاً كبيراً دار حول طريقة معالجة مأساة جدار الفصل العنصري، حتى إن البعض وجد في هذه الطريقة «نظرة استشراقية» [٧]، ففي «جدار» سيمون بيتون طغت منظومة نمطية على الشخصيات الفلسطينية، وليس على الشخصيات الإسرائيلية، فالإسرائيليون، مستوطنون جدد (١٩٧٦) أو قدامى (١٩٤٨)، كما أسمتهم بيتون في النقاش الذي تلا عرض الفيلم (مسرح القصبة، رام الله، الجمعة ٤٠٠٢/٧/١٦)، وهو العرض الثاني للفيلم بعد أبو ديس، يتكلمون بطلاقة ويحللون بعمق وبرؤية فلسفية وجودية معنى السلام ووجودهم وهويتهم وكيانهم كيهود في إسرائيل وفي الضفة الغربية ويشرحون كيف يعيدون إنتاج تجربة الانغلاق في جيتوهات أوروبا في ظل الجدار الذي يغلق عليهم مثل ما هو يغلق على جيرانهم الفلسطينيين كما يقولون، وما أبعاد هذا عليهم كيهود (وبالطبع يوجد فرق في الانغلاق، فالجدار مفروض على الفلسطينيين بقوة السلاح ويسجنهم بعدما اخذ منهم مقومات حياتهم وأساس وجودهم). [٨]

وتظهر بيتون بنفسها في الفيلم، حيث تتحدث عنه وهي تشاهده في شاشة تلفاز أمامها، قائلة. في صيف ٢٠٠٢، وبينما كنت أتابع نشرة الأخبار، شاهدت المشاهد الأولى للجدار، وكان وزير الدفاع الإسرائيلي، آنذاك، بنيامين بن أليعازر يقول إن هذا الجدار المصنوع من الإسمنت والحديد، هو الحل الأنجع لضمان سلامة المواطن الإسرائيلي من «الإرهاب الفلسطيني» .. هذه المشاهد والكلمات

.. من فيلم "الجدار".

جعلتني قلقة، حتى أنني قلت لنفسي «يبدو أن إسرائيل أصيبت بشيء من الجنون».. في تلك الليلة لم أنم .. شعرت بأن هذا الجدار سيفرق بين الكثيرين ممن أحبهم. [٩]

وعن تحضيراتها للفيلم، أشارت إلى أنها بدأت العمل مع مطلع العام ٢٠٠٣ .. «وقتها لم تكن تصلنا معلومات كثيرة عن الجدار، فقررت مشاهدة الواقع بنفسي .. صورت بكاميرتي الصغيرة، وسجلت بعض الملاحظات، وفي الربيع بدأت التصوير .. هاجس تصوير فيلم يعيش طويلاً، يرافقني دائماً، وهذا غير متاح في التلفزيون، حيث أقدم معظم أعمالي، لذا اتجهت نحو السينما .. إنها تجربة عظيمة، وعميقة، وأكثر تأثيراً .. سعيدة بأن فيلم «الحائط» فيلم سينمائي، لكن لا يضر أن يكون تلفزيونيا أيضاً. [١٠]

وتقول بيتون: تولد لدي الشعور بأن هذا الجدار يقطع أوصالي إلى جزأين .. إنها قصة بلد أحبه وقد تعرض للخراب» .. إنه أمر كريه للنظر، إذ يشوه مشهداً رائعاً مشبعاً بالتاريخ.. إنه آلة لنزع ملكية الأراضي واغتصابها.. ليس بهذه الطريقة تحل المشكلات السياسية، ولا يمكن انهاء الحروب هكذا، مضيفة: يجب الذهاب الى الآخر، فإخفاؤه لا يعني انه لم يعد موجوداً.. ان بناء جدران اسمنتية رمادية بعلو تسعة امتار في قلب القدس او بيت لحم، يضاهي بخطورته تدمير تماثيل (بوذا) لدى الطالبان. [١١]

وتعمدت بيتون إحضار تقنيين لم يصوروا في فلسطين من قبل، كالمصور جاكوب بونكوين، وخبير الصوت جان كلود بريسون .. كنت بحاجة إلى «عيونهما وآذانهما الطازجة» .. «كنت بحاجة كي يساعداني في اللحظات التي أقترب فيها من السقوط .. كان الطاقم كبيراً، كي يتم إنجاز الفيلم بسرعة .. الطاقم الذي عمل معي وضع كل خبرته وأحاسيسه وحساسيته في الفيلم، الذي لقي ردود فعل جيدة أينما عرض، وخصوصاً في «أبو ديس»، حيث مكان العرض هو موضوع الفيلم، وسكان المكان جزء من أبطاله». [١٢]

وأبرزت بيتون في خضم الحديث عن فيلمها النادر حول محمود درويش قضية صعوبة الحصول على الأرشيف الصوري المُخزن لدى سلطات الانتداب البريطاني قبل التقسيم، ولدى الأمم المتحدة عند التصويت على قرار التقسيم، وكلها تُظهر أن فلسطين كلها عربية، أرضاً وجغرافية وثقافة ولغة.

عن محمود درويش

كان لظهور محمود درويش في فيلم بيتون الذي حمل اسم «الأرض تورث كاللغة» (١٩٩٨)، خصوصية كبيرة كراو من نوع خاص للحكاية الجمعية الفلسطينية، ورمز ثقافي لا يزال حاضراً لدى الشعب الفلسطيني، هي التي استطاعت دون غيرها، في ذلك الوقت، إقناعه بالظهور في فيلم تلفزيوني ضمن سلسلة أفلام نفذتها عن مبدعين عرب.

تطرّقت في الفيلم إلى كيفية إقناعها له، هي الشابة الغرة الحالة في ذلك الوقت، بأن يقف أمامها، وهو الذي كان يكره الكاميرا.. وتحدثّت عن فرح بالغ ممزوج بمتعة كبرى استشعرتها حين سمح لها بتصوير تفاصيل حياته اليومية مبدعاً ومناضلاً وإنساناً، هو «الشاعر القومي الفلسطيني»، وهي «المواطنة الإسرائيلية اليهودية»، الأمر الذي دفعها إلى التفكير في إخراج سلسلة من ثلاث حلقات عن رموز ثقافية وفنية عربية مشهورة مثل أم كلثوم، محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش. [١٣]

ويرى بعض النقاد أن صورة محمود درويش السينمائية الوحيدة، رسمتها المخرجة الاسرائيلية سيمون بيتون، في فيلمها التسجيلي الشهير «الأرض تورث كاللغة»، وربما كان غريباً أن أحداً من السينمائيين الفلسطينيين والعرب، على السواء، لم يبادر إلى رسم صورة سينمائية لهذا الشاعر الكبير، الذي ملأ الدنيا، وبلغت سمعته الآفاق.. لقد اكتفوا باستلهام قصائده، وصوته.. فربما أن أحداً منهم لم يكن يفكر بأن محمود درويش سوف يموت «عمّا قليل»!.. ولعل درويش ذاته كان يبدو لهم أبعد ما يكون عن الموت، حتى بعد أن دخل مبضع الجراح إلى قلبه. [١٤]

عبر قرابة الساعة، تحيك سيمون بيتون فيلمها بحرفية ومهنية واضحة، مستفيدة من موضوعها، الشاعر والإنسان الغني والمتعدد الوجوه والتجارب، المتنقل بين الأمكنة والأزمنة، ومختلف الحالات والانفعالات.. تبدأ مع درويش من لحظة ذاكرة طفولية، وتسلط كاميرتها على الورقة والقلم، اللذين بلقائهما خلق محمود درويش عالمه الشعري الفذ.. تبدأ معه من إحدى المطارات التي أضحت علامات في حياة الشاعر كثير التجوال قسراً وعن سبق إرادة، والمتنقل من عاصمة إلى أخرى، دون بلاده.

ما بين باريس وتونس، مروراً بعمان، إلى حافة فلسطين عند جبل نيبو، قبيل العودة إلى رام الله، وليس إلى البروة التي هاجر منها في العام ١٩٤٨ إلى قرية «الجديدة» المجاورة، ترافق الكاميرا درويش، وهو يمر بحديث شائق على الكثير من محطات حياته، ويلقي بحكمته رذاذاً، وبلغة الشاعر الذي عاش تجربة استثنائية نقلها معه إلى حيث مكتبه في مركز خليل السكاكيني الثقافي بمدينة رام الله. جاء هذا في الفيلم قبل أن تعود بيتون إلى قرية البروة برفقة كاميرتها، للقاء خال درويش، الذي كان يقف بين أنقاض القرية المدمرة، في محاولة لاستعادة تفاصيل المكان، وارتباط الجغرافيا التي لا يزال يختزنها في ذاكرته بابن شقيقته الشاعر الكوني، قائلا ومشيراً بأصابع يده اليمنى: هنا الغرفة التي ولد فيها محمود درويش.. هذا هو البئر الذي كان والده يسحب منه الماء، وكأن الصورة التي تقدمها بيتون في فيلمها تحاول أن توازي ما قاله محمود درويش عن بئر والده، وعن القمرين اللذين كان يراهما، وهو فتى في البئر المشار إليه.

تترك سيمون بيتون لدرويش حرية أن يسترسل كما يشاء، وإذ تسأله بالقليل من الكلام، فإنما لغاية استكشاف المزيد من عوالمه الشخصية والحميمة، وطقوسه الحياتية، في رحلة فيلمية ما وراء الشعر، ووراء الصورة الإعلامية، والكتابات الأنيقة.. فهي تعرف أن محمود درويش كان حالة جدالية، من غير السهل والبسيط قراءتها، والتعرف إلى أحد وجوهها، والاكتفاء بذلك. [١٥] ولهذا، يمكن القول بأن فيلم «الأرض تورث كاللغة»، نجح إلى حد كبير في تلمس بعض

ملصق فيلم بيتون عن "بن بركة".

جوانب صورته.. ولكن بقي الكثير من ملامح شخصية درويش، عصيّة على الإحاطة بها .

وفي خضم الحديث عن فيلمها النادر حول محمود درويش أبرزت بيتون قضية صعوبة الحصول على الأرشيف الصوري المُخزن لدى سلطات الانتداب البريطاني قبل التقسيم، ولدى الأمم المتحدة عند التصويت على قرار التقسيم، وكلها تُظهر أن فلسطين كلها عربية، أرضاً وجغرافية وثقافة ولغة، كما بينت أيضاً كيف أن الصهيونية استغلت القرار وبدأت سياسة ترحيل العرب بكل الوسائل والاستيلاء على الأرض.. هذه الأيديولوجية المبنية على «حب مريض للأرض، حب التملك والتدمير، حب لا يحب المشاركة. [١٦]

عن «بن بركة»

وكان للمخرجة الإسرائيلية المعادية للصهيونية سيمون بيتون شريط توثيقي من ٩٠ دقيقة، بعنوان «مهدي بن بركة: المعادلة المغربية» (٢٠٠١)، رأت فيه ضرورة التركيز على الجدل حول قضية اختطاف المعارض المغربي الشهير بن بركة أحد قادة الصحوة والوطنيّة في العالم الثالث، وحجب شخصيته ومكانته المميزة على الساحة السياسية عن الأذهان. لهذا اختارت بيتون أن تخصّص شريطها لمسار بن بركة السياسي، وأن توقفه عند لحظة وقوعه في فخ الاختطاف. [١٧]

ويرى باحثون ونقاد أن هذا الفيلم يندرج في إطار «توالي البوح بكثير من الإعجاب بالتاريخ العربي وفنّه»، وأن فيلمها الوثائقي، الذي صورته عن الاختطاف الذي حدث في منتصف ستينيات القرن الماضي وشكل حدثاً سياسياً بصدى عالمي كبير إبانها، هو وثيقة مهمة قدمت عبر فيلم صور بمقدار عاطفي كبير ومؤثر». [١٨]

هذا الفيلم الوثائقي التلفزيوني الذي حققته سيمون بيتون، صاحبة أفلام شهيرة ذكرتها أعلاه مثل الفيلم عن محمود درويش وغيره، وعمل آخر مهم عن راشيل كوري، وأفلام أخرى مناهضة لإسرائيل، ونفذته بالشراكة مع باتريس بارا، يطرح على مدى ثلاثة أرباع الساعة، جملة من الحقائق والقضايا التي تلامس قضية بن بركة، لتستعيد في الوقت نفسه مسيرة ومسار هذا المناضل منذ بداياته، حتى تحوله الى الوجه البارز في النضال المغربي ونضالات العالم الثالث، هي التي عرفت كمنشقة عن إسرائيل التي حملت جنسيتها ثم أبدلتها بجنسية فرنسية .. مغربية الأصل، والتي تقول دائماً إن «بن بركة كان بطل صباها والقدوة النضالية التي ترعرعت على الإيمان بها». [١٩] ويمكن القول دون تردد بأنه فيلم وثائقي جذاب، تخطى عملية اختفاء بن بركة، للحديث عن شخصه ومساره السياسي في مغرب كان يسير نحو استكمال التخلص من الوجود الفرنسي في منتصف القرن العشرين.

ويمتاز الفيلم في كونه يعكف على عرض حياة المهدي بن بركة ، المعارض المغربي الاشهر في المرحلة التي سبقت موته عبر العديد من المقابلات مع شخصيات سياسية فاعلة في المغرب اليوم ممن عرفوه وشاركوه النضال السياسي وكذلك مع افراد من عائلته، حيث تروي من خلاله قصة المغرب وتطورات التاريخ المغربي في فترة حساسة حافلة سبقت الاستقلال وأعقبته، عبر أرشيف من الصور بالأبيض والأسود تضاف الى المقابلات، لترسم بيتون مسار بن بركة الرجل والانسان في مرحلة سبقت اثارة قضيته التي لم تكشف فصولها كاملة بعد أكثر من ٣٥ سنة مرت على وفاته، شيئا فشيئا يطل المشاهد على صورة لامعة لبن بركة، بدأ استاذ رياضيات ومثقفا على نطاق واسع، مناهضا للاستعمار الفرنسي، كافح الامية في المغرب قبل أن يكون معارضا وكان شديد الاطلاع على شؤون العالم الثالث، يتمتع بقدرات خطابية هائلة. [٢٠]

أمام جدار عار في بيت متواضع جلست اخوات بن بركة امام عدسة بيتون يتذكرن هذه الحقبة، وكيف كان الاخ الاكبر يحثهن على التعلّم والخروج من عالم التخلّف.. عدسة بيتون لم تصور فقط الجدران العارية. فرفاق بن بركة هم اليوم ما بين مناضلين متقاعدين وناشطين في حكومة رئيس الوزراء السابق، الاشتراكي عبد الرحمن اليوسفي، وما بين مقربين من القصر الملكي ومراقبين للحياة السياسية المغربية، مع الإشارة إلى أن ديكورات المنازل كانت تسبق كلام اصحابها حول ما بقي من حنين لمرحلة بن بركة.

وبن بركة، كما تقول بيتون، هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة: ابن طبقات معدمة استطاع دخول المدرسة الفرنسية والتخرج كأستاذ رياضيات وكان استاذاً للملك الحسن الثاني في صباه، ومن ثم تزعّم الحركة التي تنادي بالاستقلال. وعلى عكس معظم القادة الوطنيين في حقبة الاربعينات والخمسينات، كان لبن بركة، الى جانب التزاماته الوطنية، وعي اجتماعي وثقافي ورؤية عالمية للصراعات. [٢١]

بيتون، كمخرجة، تعرف كيف تستخلص من محدثيها ما وراء الصورة التي يريدون ان يقدموها عن انفسهم، فقد جعلت البعض يبكي وهو غارق في ذكرياته والآخرين ينشدون الاغاني الوطنية التي ظهرت زمن بن بركة، وهنا للمشاهد المشرقي ان يلقي ابتسامة صغيرة عندما يسمع نشيداً حماسياً على صور آليات زراعية تبني اقتصاد المغرب المستقل، ثم يتبين له ان الموسيقى ليست سوى النشيد الوطني اللبناني! [٢٢]

ومن بين الافواه التي تتكلم يُلاحَظ تجنب ذكر الحسن الثاني، الغائب الاكبر في الحديث. كذلك فبين ظهور رئيس الوزراء المغربي،

.. من فيلم "راشيل".

آنذاك، في الفيلم ورفض بعض الاجهزة الاعلامية فتح ارشيف هذه المرحلة التاريخية، يلوح كأن جسد بن بركة المخفي ما زال يحرك حاضر المغرب. [٢٣]

راشيل كوري

عند الحديث عن فيلم سيمون بيتون «راشيل» (٢٠٠٨)، لابد من الإشارة إلى أنه قام على شهادات فندت أطروحة شرطة وقوات الاحتلال الإسرائيلي التي أنكرت الجريمة من خلال تقرير طبي وعسكري وصفه كثيرون بـ «الملفق»، [٢٤]، كما أنه يكشف تواطؤ البيت الأبيض مع الاحتلال الإسرائيلي من خلال رفض السفارة الأميركية في تل أبيب الحضور إلى المشرحة أو فتح أي تحقيق في الموضوع، معتمدة هي التي صورت الفيلم في أميركا ورفح وإسرائيل، في استعادتها للأحداث، على رسائل راشيل، سواء المكتوبة أو الإلكترونية، التي كانت ترسلها إلى أبويها. ويروي الفيلم على امتداد مائة دقيقة الأحداث والظروف التي أحاطت بمقتل الناشطة الأميركية أثناء تصديها لجرافة إسرائيلية كانت في طريقها لهدم أحد المنازل في قطاع غزة.

يقيم الفيلم، منذ البداية، مواجهة بين طرحين يتمثل أحدهما باقتناع الفلسطينيين وأصدقاء راشيل الذين كانوا معها لحظة موتها بأن الجندي الإسرائيلي في الجرافة عمد إلى قتلها عن قصد، في حين يمثل الطرح الآخر رواية جيش الاحتلال الإسرائيلي التي تقول إن الحادث غير مقصود. ويعرض الفيلم شهادات تبين مشاعر الفلسطينيين واحتضانهم لهؤلاء الشباب الذين جاؤوا للدفاع عنهم بشكل سلمي، وكذلك شهادات رفاق راشيل الذين تحدثوا عن تجربتهم ودوافعهم. كما يعرض الفيلم أيضا شهادات جنود الاحتلال في غزة، قبل الانسحاب أحادي الجانب، وبينها شهادة جندي شاب في بداية الفيلم اعترف وهو يدير ظهره للكاميرا انه قام بعمليات قتل أبرياء بينهم امرأة وطفل، وبأنه كان يطلق النار

ليتسلى في غزة حتى على خزانات المياه على أسطح المنازل، بل ويعترف بأن ما فعله لم يكن بالأمر الصواب.

المواطن بشارة

في العام٢٠٠١ قدمت بيتون فيلمها «المواطن بشارة» عن ومع العضو العربي السابق في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة، ويتطرف إلى يوميات وأهداف وأفكار بشارة، كما يسعى إلى التوفيق بين مواقف متناقضة للرجل الذي كان في العام ١٩٩٩ أول فلسطيني يترشح لمنصب رئاسة وزراء إسرائيل. [٢٥]

وقالت بيتون حول الفيلم، خلال تصويره: هو وثائقي يصف بشارة، اول عربي ترشّح في الانتخابات لمنصب رئيس الوزراء في اسرائيل.. تتبّعته عدستي طوال حملته الانتخابية. [٢٦]

بيتون المعادية للصهيونية

من أفلامها ومقابلاتها مع الوسائل الاعلام يظهر واضحًا أن لسيمون بيتون مواقف متقدمة للغاية كواحدة من «المخرجين الجدد» في الحركة السينمائية الإسرائيلية، سواء من داخلها أو من خارجها، ففي حديث لها، قالت إنها «من الناحية التاريخية والأخلاقية لا يمكنها إنكار أن الأراضي الفلسطينية هي أراض محتلة، وأضافت بعدما أكدت أنها عربية: لكنني كفنانة قد تكون حالمة أو طوباوية، أرى ضرورة التعايش بين الفلسطينيين والإسرائيليين». [٢٧]

ويرى الناقد والإعلامي اللبناني بيار أبي صعب، أنه «في الحقيقة يصعب تصنيف سيمون بيتون. أهي الكاتبة والصحافيّة والناقدة التي تنشر أساساً بالفرنسيّة من باريس؟ أم المناضلة السياسيّة التي وقفت مبكراً إلى جانب القضيّة الفلسطينيّة، حتى كادت مسيرتها تتماهى مع التاريخ السياسي الفلسطيني خلال ربع قرن؟ أم السينمائيّة التي حقّقت أفلاماً تتجاوز «التوثيق» إلى الإبداع، بفضل أسلوبها الخاص ونزعتها الفنيّة التي تعرف كيف تنصهر في موضوعها حتّى الذوبان؟. [٢٨]

وأضاف: نذكر بطريقة عابرة شريطاً بتوقيعها عن عزمي بشارة (المواطن بشارة ٢٠٠١)، وآخر مرجعي هو (محمود درويش ١٩٩٨)، ويحمل اسم «الأرض تورث كاللغة»، وإذا عدنا أكثر إلى الوراء، بوسعنا أن نستعيد الأفلام التي حققتها، وهنا تطول القائمة: «حكاية أرض» (عن تاريخ القضيّة الفلسطينيّة، ١٩٩٢)، و «عمليّة انتحاريّة» (١٩٩٩)، و «بن بركة» (عن المناضل المغربي الشهير، ٢٠٠٠)، لكن أخطر أفلامها حتّى الآن هو «جدار» (٢٠٠٤)، ولعلّه من أقوى ما صوّر عن جدار الفصل العنصري الذي بناه الإسرائيليّون في فلسطين، «ليعزلوا أنفسهم مجدداً في غيتو»، هو من مخلّفات النازيّة المقيتة التي كان اليهود ضحيّتها في أوروبا. [٢٩]

وتؤكد سيمون بيتون، أن لا حل للصراع الفلسطيني الإسرائيلي دون إنهاء الاحتلال، وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود الخامس من حزيران، وقالت: الأمور ليست بهذه البساطة .. لكن إنهاء الاحتلال سيكون خطوة أولى على طريق إنهاء الصراع، الذي تزيد قوى التطرف تعقيداته، وحدته.. ما يحدث في الأراضي الفلسطينية يعقد الأمور كثيراً .. لا بد أن تفهم جميع الأطراف، أن الحل ليس بالقوة، بل بالمحبة. [٣٠]

وعن اتهامها بتعامل أفلامها مع شخصية الإسرائيلي القادر على التعبير عن نفسه، ومع شخصية الفلسطيني «المتلعثم»، إن جاز التعبير، أكدت: هذا ليس دقيقاً .. الأمر يعتمد على موضوع الفيلم، أعمل في الكثير من أفلام على جمع طرفي الصراع، بحيث يعبر كل منه عن وجهة نظره بحرية .. أعتقد أن أفلامي كانت متوازنة، بل إن الكثير من الإسرائيليين وجدت أنها منحازة للفلسطينيين، مع أن بعض الفلسطينيين وجدوا في بعض أفلامي استشراقاً، أو موازنة ما بين الضحية والجلاد، وهو ما لا أراه، مع احترامي لكافة الآراء المتناقضة فيما قدمته وأقدمه من أفلام. [٣١]

والسينما كما تفهمها سيمون بيتون هي تعبير فنيّ إنساني مطلق مجرد من أي نزعة قومية او عنصرية. وبكل بساطة، ترى أنه لا يمكن أن يوجد إنسان يحترم نفسه، يغامر بالدفاع عن الاحتلال الإسرائيلي، خاصة إذا ما كان هذا الإنسان مبدعا سينمائيا.. من ناحية ثانية، لا تؤمن هذه المخرجة بوجهات النظر الجماعية، وتقول: «في السينما، لا وجود لوجهة نظر فلسطينية وأخرى إسرائيلية، ولا أؤمن بوجهات النظر الجماعية، الخطاب السينمائي يؤمن بالإنسان وكفى». [٣٢] ولذلك فإن اهتمام هذه السينمائية بفلسطين ليس إلا لكونها «تجسد الصراع المطلق بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والجمال والقبح، والسلام والعنف»، أما الفيلم الوثائقي الجيد، بالنسبة إليها فهو «عمل إبداعي يساعد الجمهور على تشكيل رؤية أوضح ما يمكن عن الواقع، ويمنحهم الفرصة للفهم والتدبر، إنه الفيلم الذي يحتفظ منه المشاهد بصورتيْن أو ثلاث بعد الخروج من العرض.. وتحلم سيمون بيتون بـ «يوم ترفع فيه عن الجيش الإسرائيلي الحصانة التي تمنع مقاضاة عناصرة، وقيادته أمام المحاكم الدولية». [٣٣]

لكن، مثل هذه الرؤية تجرد الفن من دوره السياسي وفعاليته الاجتماعية، فالظلم الذي يتحدث عنه هذا الفيلم هو ظلم اجتماعي وسياسي لا يغيّره إلا فعل جماعي. ولئن كانت السينما الملتزمة مجرد قول في المقاومة فإن هذه الأخيرة تظل في نهاية المطاف موقفاً وفعلاً ميدانياً.

الهوامش

١ يوسف الشايب. «المخرجة سيمون بيتون: الجدار يقطع أوصالي إلى جزأين»، جريدة الأيام الفلسطينية، ٢٤ تموز ٢٠٠٤.

٢ المصدر نفسه.

٣ مبارك حسني. «سيمون بيتون وحميد برادة في حوار الفن والنضال»، جريدة الحياة اللندنية، ١٦ آب ٢٠١٥.

٤ المصدر نفسه.

٥ محمد نبيل، «في حوار مع السينمائية المغربية سيمون بيتون»، موقع «الحوار المتمدن»، ١٩ شباط ٢٠٠٩.

٦ المصدر نفسه.

٧ علياء أرصغلي، «المنظمومة الاستشراقية في جدار سيمون بيتون»، جريدة الأيام الفلسطينية، ٤ أيلول ٢٠٠٤.

٨ المصدر نفسه.

٩ يوسف الشايب، مصدر سبق ذكره.

١٠ المصدر نفسه.

١١ المصدر نفسه.

١٢ المصدر نفسه.

١٣ مبارك حسني، مصدر سبق ذكره.

١٤ بشار إبراهيم، «عن صورة محمود درويش السينمائية»، موقع «الحوار المتمدن»، ٢٥ آب ٢٠٠٨.

١٥ المصدر نفسه.

١٦ مبارك حسني، مصدر سبق ذكره.

١٧ بيار أبي صعب، «فيلم رابع عن تصفية القائد المغربي: القضية بن بركة مستمرة بنجاح كبير»، جريدة الأخبار البيروتية، ٢٣ تموز ٢٠٠٧.

١٨ مصطفى الطالب، مقال بعنوان «سيمون بيتون: لا يمكنني أن أنكر أن فلسطين أرض محتلة»، موقع «مغرس» الإلكتروني الإخباري، ١٠ تشرين الأول ٢٠٠٩.

١٩ خبر بعنوان «فيلم تحدثت فيه سيمون بيتون عن بطل شبابها»، جريدة الحياة اللندنية، ١ آب ٢٠١٠.

٢٠ فرانس برس، مقال بعنوان «بن بركة ليس ملاكاً في فيلم تسجيلي»، جريدة البيان الإماراتية، ٣١ أيار ٢٠٠١.

٢١ مارك صايغ، مقال بعنوان «المهدي بن بركة في عدسة سيمون بيتون»، جريدة الحياة اللندنية، ١٠ حزيران ٢٠٠١.

٢٢ المصدر نفسه.

٢٣ مارك صايغ، مصدر سبق ذكره.

٢٤ بيار أبي صعب، مقال بعنوان «سيمون بيتون شاهدة حق»، جريدة الأخبار اللبنانية، ٣٠ آذار ٢٠٠٩.

٢٥ أمين فارزانيفار، مقال بعنوان «سيمون بيتون .. سينما من أجل السلام والمساواة»، موقع قنطرة الألماني بالعربية، ٢٠٠٥.

٢٦ غادة مقبل الهاشم، حوار مع سيمون بيتون، جريدة الحياة اللندنية، ٤ حزيران ١٩٩٩.

٢٧ محمد نبيل، مصدر سبق ذكره.

٢٨ بيار أبي صعب، «سيمون بيتون شاهد حق»، مصدر سبق ذكره.

٢٩ المصدر نفسه.

٣٠ يوسف الشايب، مصدر سبق ذكره.

٣١ المصدر نفسه.

٣٢ عبد الحفيظ العبدلي، مقال بعنوان «سينما سيمون بيتون .. تذكير بالعدالة المهدورة»، موقع «سويس إنفو»، ٢١ آذار ٢٠٠٩.

٣٣ المصدر نفسه.